

شرح حديث

”هِنَ حِسْنِ
إِسْلَامِ الْمَرْءِ
تَرْكُهُ
مَا لَا يَغْنِيهِ“

أ . أناهيد السميري

ألقى يوم الخميس ١٩-٣-١٤٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

[/http://tafaregdrooms.blogspot.com](http://tafaregdrooms.blogspot.com)

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله عز وجل، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله.
- والله الموفق لما يحب ويرضى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

لقاؤنا شرحٌ لحديثٍ من جوامع الكلم، وهو في المعاملات.

أعلى المرادات وأولى المطالب أن يصل الإنسان إلى درجة الإحسان، فما الطريق إلى الإحسان؟

لابد أن تتصور أن كل مرتبة من مراتب الدين (مُحسن مؤمن مُتَّقٍ) لها طريق، وهذا الطريق يُبَيِّن بالنصوص في الكتاب والسنة، فالله عزَّ وجلَّ لم يمدح المتقين والمحسنين والصابرين بدون أن يدهم على طريق التقوى والصبر والإحسان، أحياناً الإنسان يسمع هذه الأسماء الممدوحة يقول: يارب اجعلني من المتقين، لكن لابد أن تتعلم كيف تكون من المتقين، كيف تكون من المحسنين.

ما هو الطريق للإحسان؟ جمع القلب في كل أحواله، بأن:

♦ يُخْلِى قلبه من الموانع التي تمنعه عن طريق الله.

♦ ويجليه بما يجلب حياة القلب، ولا يجلب لقلبك الحياة إلا الصلة بالله.

ما معنى طلب التخلية؟

أن أجمع قلبي على أني أريد دفع كل الموانع، وأجمع قلبي على أني أريد كل الطرق التي توصلني لله عز وجل.

والتخلية ماذا تتطلب منا؟ ثلاث مسائل:

١. الصدق في بذل الجهد. الصدق في إرادة الوصول إلى درجة الإحسان، الصدق في إرادة تخلية القلب عن كل طريق يمنع عن الله، عندك حب لهذه الشهوات لكن كن صادقاً في إرادة دفع هذا المحبوب لما هو أحب إليك، كن صادقاً في أن يمتلئ قلبك تعلقاً به سبحانه وتعالى.

٢. سؤال الله، ولا أعتمد على نفسي في مثل هذه المسألة. سؤال الله أن يطرد من قلبي المفسدات، وأن يُخْلِى قلبي

بالمصلحات.

٣. تعلم طرقها ووسائلها. ونحن في الحديث نقول: ((اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكَّهَا أَنْتَ خَيْرٌ مَنْ زَكَّاهَا، وَأَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا)).^١

هذا الحديث الذي أخذنا منه المفهوم السابق أني أطلب من الله عز وجل أن يؤتي نفسي تقواها ويزكها، فكن صادقاً، واطلب من الله هذا الأمر وتعلم الطريقة.

وفي الحديث: ((يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ)).^٢

((أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ)) أي قلبي، فلو صلح القلب لصلح الشأن كله.

كيف أتعلم طرق التخلية والتخلية ووسائلها وموانعها؟

مصدري الكتاب والسنة، منها تتعلم طرق التخلية والتخلية.

• حكى الإمام أبو عمرو بن الصلاح، عن أبي محمد بن أبي زيد إمام المالكية في زمانه أنه قال:

جَمَاعُ آدَابِ الْحَيْرِ وَأَزْمَنُهُ تَتَفَرَّعُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَحَادِيثَ :

١. الحديث الأول: قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ حَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ)).^٣

٢. الحديث الثاني: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ)).

٣. الحديث الثالث: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلَّذِي اخْتَصَرَ لَهُ فِي الْوَصِيَّةِ : ((لَا تَغْضَبْ)).

٤. الحديث الرابع: وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ((الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ)).^٤

^١ رواه مسلم (٢٧٢٢).

^٢ أخرجه النسائي في "الكبرى" (١٤٧/٦/١٠٤٠٥ برقم).

^٣ رواه البخاري (٦٤٧٥)، ومسلم (٤٧).

^٤ رواه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦)، وأحمد (٢٠١/١) (١٧٣٧).

^٥ رواه البخاري (٦١١٦).

هذه الأربع أحاديث جماع آداب الخير وأزمته؛ فمن يلتزم بهذه الأربعة سيجد في قلبه من الخيرية ما لا يجدها مع التشتت، اجمع قلبك على فهم هذه الأحاديث، تجد كل الخير.

نبدأ في شرح حديث: ((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ))

مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ: "مِنْ" هنا للتبويض، أي من بعض إحسان المرء تركه ما لا يعنيه.

يقول ابن رجب الحنبلي: "وَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْكَ مَا لَا يَعْنِي مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِهِ، فَإِذَا تَرَكَ مَا لَا يَعْنِيهِ، وَفَعَلَ مَا يَعْنِيهِ كُلَّهُ، فَقَدْ كَمَلَ حُسْنُ إِسْلَامِهِ!"

درجة الإحسان كأنها شقان:

١. ترك ما لا يعينك.

٢. فعل ما يعينك.

وَقَدْ جَاءَتْ الْأَحَادِيثُ بِفَضْلِ مَنْ حَسَنَ إِسْلَامَهُ وَأَنَّهُ تُضَاعَفُ حَسَنَاتُهُ، وَتُكْفَرُ سَيِّئَاتُهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ كَثْرَةَ الْمُضَاعَفَةِ تَكُونُ بِحَسَبِ حُسْنِ الْإِسْلَامِ

على أي أساس تُضَاعَفُ حَسَنَاتُهُ؟ على حسب درجة حسن إسلامه؛ معنى ذلك أن الناس في حسن الإسلام متفاوتون.

فَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ)).

ما شرط المضاعفة هذه؟ حسن الإسلام.

كيف أتى بحسن الإسلام؟ من الحديث بترك ما لا يعنى وفعل ما يعنى.

إذن من أجل أن أكون أهلاً للمضاعفة - كما في الحديث - أتى بحسن الإسلام.

^١ رواه البخاري (١٣)، رواه مسلم (٤٥).

^٢ جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي [ص: ٢٨٧] الحديث الثاني عشر.

^٣ رواه مسلم (١٢٩).

ضد ترك ما لا يعني: الاشتغال بما لا يعني.

وَرَوَى أَبُو عُبَيْدَةَ عَنِ الْحُسَيْنِ قَالَ: مِنْ عَلَامَةِ إِعْرَاضِ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ الْعِبَادِ: أَنْ يَجْعَلَ شُغْلَهُ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ خِذْلَانٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فالانشغال فيما لا يعني من علامة الخذلان.

ما هو مقياس "لا يعني"؟

لأن هذا المقياس هو الذي فيه الخلاف، أحياناً الشخص يسأل أسئلة ويتصور أنها تعنيه، ويبحث عن مسائل ويتفكر فيها ويتصور أنها تعنيه..

قَالَ الْقَارِي -أحد شُراح الترمذي- فِي مَعْنَى تَرْكِهِ مَا لَا يَعْنِيهِ: أَيُّ مَا لَا يُهْمُهُ وَلَا يَلِيْقُ بِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَنَظْرًا وَفِكْرًا

١- ما لا يهمله .

٢- وما لا يليق به .

كيف أتركها ؟

١ . قولاً: لا أتكلم فيها.

٢ . فعلاً : لا أفعلها.

٣ . نظراً وفكراً : لا أبحث وراءها أو أفكر فيها.

كل ما لا يعينك ولا يليق بك لا تتكلم عنه، ولا تفعله ولا تنظر إليه ولا تفكر فيه، هذا هو المطلوب.

وَقَالَ: "وَحَقِيقَةُ مَا لَا يَعْنِيهِ: مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ضُرُورَةٍ دِينِيَّةٍ وَدُنْيَاةٍ، وَلَا يَنْفَعُهُ فِي مَرَضَاتِهِ مَوْلَاهُ، بَأَنْ يَكُونَ عَيْشُهُ بِدُونِهِ مُمَكِّنًا، وَهُوَ فِي اسْتِقَامَةِ حَالِهِ بَعِيْرُهُ مُتَمَكِّنًا، وَذَلِكَ يَشْمَلُ الْأَفْعَالَ الرَّائِدَةَ وَالْأَقْوَالَ الْفَاضِلَةَ"^١

الفاضلة يعني من الزيادة.

^١ سنن الترمذي/كتاب الزهد/شرح حديث من حسن إسلام المرء (٢٣١٧).

مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ضَرُورَةٍ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ: يعني الأمر ضروري في دنياه هذه مشكلة، لأننا عندنا خلاف في ما هو ضروري في الدنيا.

وَلَا يَنْفَعُهُ فِي مَرَضَةِ مَوْلَاهُ: كيف لا ينفعه في مرضاة مولاه؟

بِأَنْ يَكُونَ عَيْشُهُ بِدُونِهِ مُمَكِّنًا: بدون هذا الموضوع الذي يفكر فيه.

وَهُوَ فِي اسْتِقَامَةِ حَالِهِ بِعَيْزِهِ مُتَمَكِّنًا: يعني حاله مستقيمة بدون ما يتكلم أو يفكر أو يفعل هذا الفعل.

وَذَلِكَ يَشْمَلُ الْأَفْعَالَ الرَّائِدَةَ وَالْأَقْوَالَ الْفَاضِلَةَ.

ما لا يعني هذا يكون:

- قولاً
- وفعلاً
- وتفكيراً
- ونظراً.

إذن اترك ما لا يعينك في الأربعة هذه.

ما هو الذي لا يعينني؟ الذي لا يهمني ولا يليق بي.

ما هو الشيء الذي لا يهمني؟ الشيء الذي ليس بضرورة في أمر الدنيا، ولا ضرورة في أمر الدين.

مقياس ضرورة في أمر الدنيا وفي أمر الدين مقياسه مختلف، لو أتكلم عن مقياس الضرورة في البيوت من جهة الأكل ومن جهة الفرش نتذكر حديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((لَهُ فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ وَفِرَاشٌ لِامْرَأَتِهِ وَالثَّالِثُ لِلضَّيْفِ وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ)).

ننظر لحالنا.. فراش للضيف ونحن لا نحب الضيوف ولا نريدهم! ولما يأتون نراهم ثقلين علينا، ونأخذهم استراحة في الخارج، انقلبت الموازين! .

^١ صحيح مسلم/كتاب اللباس والزينة/باب كراهة ما زاد على الحاجة من الفراش واللباس (٢٠٨٤).

لا بد أن يتغير في عقولنا مقياس (الضروري)، لأن هذا الزمن البسيط الذي لا نعني به هو الذي يمنعنا من أن نصل إلى درجة الإحسان، نقول كيف ما أقدر أجمع قلبي وقت الصلاة؟! ما يحسن إسلامك إلا لما تترك ما لا يعينك، ليس فقط في الكلام بل وفي الفعل وفي النظر وفي التفكير.

هذه المواضيع الاجتماعية التي تتصل بالحياة الأمثلة كثيرة، أنا أضع القاعدة وكل واحد يأتي بمثل في ذهنه، لكن المهم أن تكون القاعدة تامة صحيحة.

ما هو الشيء الذي لا يعينني ولا يليق بي؟ كل شيء ليس بضروري لا في أمر الدنيا، ولا في أمر الدين.

مقياس غير الضروري: الشيء الذي لا ينفك في مرضاة الله؛ يعني لو فكرت فيه ما ينفك في مرضاة الله، لو قلبت النظر فيه ما ينفك في مرضاة الله، لو تكلمت فيه ما ينفك في مرضاة الله، لو فعلته ما ينفك في مرضاة الله.

في الحياة أمور ما تنفعنا في مرضاة الله، ولا تنفعنا في الدنيا، يعني أصبحت لا هي نافعة في الدنيا ولا في الدين، المقياس:

قَالَ: بِأَنْ يَكُونَ عَيْشُهُ بِدُونِهِ مُمَكِّنًا.

الشيء الذي يكون ضروري لك هو الذي لا تستطيع أن تعيش بدونه، نرى مقياس ما لا تستطيع أن تعيش بدونه، نحن ابتلينا اليوم بـ"الدوق الرفيع"، لا بد أن يخاف صاحبه على قلبه، لأن الدوق الرفيع بأن لا أقبل بأي شيء، هذا بلاء منتشر بين النساء، ومن البلاءات المعديّة أيضًا.

قال: وَهُوَ فِي اسْتِقَامَةِ حَالِهِ بِغَيْرِهِ مُتَمَكِّنًا.

ممكن أن تكون حاله مستقيمة بغير هذا، فنجد أن كثيرًا من النفوس متعلقة بتوافة الأمور، وتخطط للتوافه هذه بكل ما تملك من قدرة، بركات الأموال زائلة بسبب أن التفاهات أصبح لها متخصصين.

– ما لا ينفك فعلاً:

أصبح الشخص يُؤثِّق نفسه، ويؤثِّق أكله، كم من حبات الليمون والطماطم ذهبت ضحية التأثُّق! ويأخذون دورة في تأنيق الطعام المكرم –الذي يموت الناس مجاعةً لفقده– وفي النهاية يُرمى ولا يؤكل! ولا أحد يشعر بأي مشاعر ألم لما يحصل! ثم نقول لا توجد بركات! قوم تعاملوا بالتأثُّق مع عطايا الله، ولا واعظ! وهذا الذي يخيفنا! والحبز الذي كان يُرمى بالأكياس هو الذي ندفع اليوم ثمن هذا البطر الذي صار.

والله عز وجل حلِيم، زمن الطفرة التي لها ٣٥-٤٠ سنة ولا زالت آثارها قريبة، الله عز وجل حلِيم علينا كل هذا الزمن، جاءت طفرة البترول يقابلها الطفرة في المال والحالة الاجتماعية يقابلها أكياس من الخبز تُرمى، ثم نشتكى أن الخبز فني، وكل واحد يبحث على وزارة التجارة، والذي يبحث عن التجار، والذي يكلمني عن مصانع القمح، وأين التوبة عن الفعل الذي قمنا به!

على كل حال مثل هذا الأمر، التأثق في الملابس، التأثق في الطعام، التأثق في فرش البيت، كل هذا مما لا يعينك، تستقيم حياتك بدونه.

والتأثق ليس ضده (التبذُّل)، بل ضده: ما يكفيك، الحد الأدنى الذي يكفيك، الذي تعتذر به عند الله.

كلما زاد تأثقتك وجمعتك وترتيبك وكلما ذهب الزمن في ذلك طال الحساب يوم القيامة، وأثر على حسن إسلامك! لا يؤثر فقط على الصورة العامة والبذخ، أيضاً قلبك يتأثر بكثرة النظر والتفكير. النظر إلى التأثق والتفكير فيه ألا يأخذ منا زمناً؟ رغماً عنا يأخذ منا زمناً، إذن ماذا نفعل؟ نتبدل؟ لا أحد يقول بذلك! لكن المسألة يحتاج لها رضا، وإحساس بأن وراءنا شيئاً مهماً، وأنها في النهاية سنكون في حفرة، لا بد أن نبحث اليوم عن ما يُؤنسنا في قبرنا، هذا هو التفكير.

الزهد ليس المقصود به أن تترك الدنيا، معناه أن تكون الدنيا في يدك، إذا جاءك من عند الله رزق خير وبركة، إذا ما جاءك لا نجري وراءه ونجد أنفسنا تفتت أعضاؤنا ونحن ندور في الأسواق ويتعب تفكيرنا من أجل أن ألبس هذا على هذا! كل هذا سيؤثر على قلبك وحسن إسلامك.

ليس نقاشنا هنا حول الزهد، بل حول "قلب العبد"، لا تشغل لا تفكر لا تتكلم لا تفعل ما لا يهَمُّك ولا يليق بك. (وما لا يليق بك) هنا سنوضح معناها، قد تقول عن أمر: هذا يهمني، ونسلم لك بهذا، لكن توجد أمور لا تليق بك، لماذا؟ شخص راحل إلى ربه، قرر أن لا يلتفت إلى الدنيا، يريد أن يأنس في قبره، فيه أمور لا يليق بمثلك أن يفعلها وهي ليست محرمة، شخص مُقبل على ربه، يعلم أن الملك مُلك الله، والرزق من عند الله، وأن العبد إذا كان عند ربه مذكوراً بوركت له الدنيا كلها، وإذا كان عند ربه مبغوضاً غير محبوب فمهما تأثق لأهل الأرض لا يساوي شيئاً، لما تتغير مقاييسنا في ذهننا يصبح لدينا أمور لا تليق بنا، أتمنى أن أكون من أهل الفرح يوم القيامة، من القوم الذين يلبسون حريراً، ما يليق بي أن أكون مبهرجة غاية البهرجة، مع التنبيه أن النقاش ليس حول الحرمة، إنما حول يليق ولا يليق.

كل ما زدت انكساراً وذلاً لربك انعكس هذا على ظاهرك وزدت إظهاراً لهذا الذل على نفسك.

وهنا لا بد أن نصحح صورة في بعض الأذهان: التدين لا يؤدي بالناس إلى أن تكون صورتهم سيئة، الذي كان أنيقاً قبل أن يتدين سيبقى كذلك، لكن الذي سيتغير هو أن تنطفئ الثورة وقوة الاهتمام وسيبقى شخصاً مرتباً، التدين يطفئ في القلب شدة الالتفات إلى تأنيق الناس مثلاً أو تأنيق بيوتهم، يصبح لا يليق به ولا ينصرف عقله لمثل هذا.

وإذا كان التأنيق يهم النساء فالرجال عندهم كلام آخر من العناية بالظهور أو السيارات، والشباب عناية بالجوات، وكل شخص عنده اهتمامات مختلفة. نهاية الموضوع لا بد أن تعلم أن الذي لا يعينك هو الذي لا تحتاجه بضرورة في دينك ولا دنياك، ولا ينفعلك في مرضاة الله عز وجل.

– ما لا ينفعلك قولاً:

المواضيع التي تفتح بيني وبين الناس في الجلسات العامة أو الخاصة، كثير من هذه المواضيع لا تعينني، لا في مصلحة لي ولا مصلحة للشخص الذي أمامي، بل في الغالب تكون وراءها مفساد، فالأسئلة التي لا داعي لها، ابتداءً بالسؤال عن العمر، وانتهاءً بالسؤال عن أحوال الزوج وأوضاعه! يعني لا نستحي إلا أن نسأل كم راتبه لكن كل التفاصيل نسأل عنها! هذه الأسئلة كلها مُنقصة لحسن إسلام المرء.

والمشكلة ليست في أنك تعديت على حقوق الآخرين فقط، بل هو منقص لحسن إسلامك أيضاً.

هذا الدرس غالباً الناس يخرجون منه بمشاعر التعقيد، لا بأس لا بد أن ننشحن، هذا ليس كلامنا هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم. عندك قلب واحد، ولسان واحد، وبدن واحد، لو تكلمت فيما لا يعينك ستنشغل عن الكلام فيما يعينك، وإذا فكرت فيما لا يعينك ستنشغل عن التفكير فيما يعينك.

ما لا ينفعلك تفكيراً:

قد يمر شخص بجانب مدرسة أهلية أو مطعم، يقول تخيلي كم ممكن يكون دخلهم! هذا آخر ما توصل إليه بعد فكر طويل وانشغال فيما لا يعنيه، ما عنده شيء يفكر فيه، ما عنده قلب يهتم به، فمن كثرة بعده عن الانشغال عن ما يعنيه وصل لهذه الدرجة أنه ينشغل بتمام تمام ما لا يعنيه! الانشغال بما لا يعني يورث بعد ذلك أمراضاً، يفكر كم دخلهم ثم يحسداهم!

مع كثرة احتكاك بعضنا ببعض يصبح بيننا كلام، لازم أفكر قبل أن أتكلم هل هذا الكلام الذي أتكلم به ينفعني في ديني؟ ينفعني في هذه الصحبة؟ أو ستكون هذه الصحبة سبب لنقص الإسلام في قلبي؟!.

انتبهوا للعلاقات، الاحتكاكات هذه أكثر مواطن تسبب انشغالا بما لا يعني، فرق بين هذا وبين النصح، تكلم الذي أمامك من أجل أن توعظه، تكون مُستمعًا جيدًا من أجل أن تكون مُرسلاً جيدًا لا من أجل أن تنشغل. انتبه وأنت تسمعهم وتكلمهم تسألهم أسئلة ليس لها داعٍ فقط لإشباع فضولك، حتى هذا مُنقص لحسن إسلامك.

أنت في الحياة لمهمة غاية في الأهمية، لا بد أن يدور عقلك حولها.

الشخص المبارك أينما جلس لا يسأل الناس عن تفاصيل حياتهم، فقط يكلمهم بحيث يُرضيهم عن ربهم، كل الذي يحمل همّه ويشغل باله أن يا قوم اعلموا ما أعلمه عن الله {بَا أَبَتٍ إِيَّيْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ} ، كل همّه أن الناس يحسنون الظنّ برّبهم، يكلمهم عن الله، يقول لهم أنتم خلقتهم في الدنيا من أجل أن تأتيكم البلاءات فتتعلقون به وحده سبحانه وتعالى، أنتم ما لكم إلا باب الله، ما يرفع عنكم ما بكم إلا الله، ما يستحق أحد أن يُذل عند بابه إلا الله، لا أحد سيعطيك مرادك إلا الله، لا أحد سيهدي ولدك إلا الله، لا أحد سيهدي زوجك إلا الله، بمعنى أن المبارك يدور حول جذب القلوب إلى باب الله، فيكون له أجر هذا الجذب إلى بابه سبحانه وتعالى، هذا الذي انشغل بما يعنيه.

لكن الناس في هذا درجات، لا تتصور أن من أول وضع قدمك على هذا الحديث لا بدّ أن نبلغ الدرجة العالية، أهم شيء أنه يبقى في قلبي أن تدخّلي فيما لا يعنيني سبب لنقص حُسن الإسلام، سبب للبعد عن حُسن الإسلام.

العلاقة بين ترك ما لا يعنيني والإحسان:

قال ابن القيم: لا بدّ في قبول المحل -القلب- لما يوضع فيه أن يفرغ من ضده، فقبول المحل لما يوضع فيه مشروطٌ بتفريغهِ من ضده. وهذا كما أنه في الذوات والأعيان فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات.

تشبيهه: أي كأس فيه زيت وتريدين أن تضعي فيه ماء ماذا تفعلين؟ لا بدّ من تفريغهِ، وبعد ما تفريغها وتنظيفها تضعين الماء.

كذلك قلبك لا بد أن يفرغ مما لا يعنيه من أجل أن يمتلئ بما يعنيه.

يقول: فإذا كان القلب ممتلئًا بالباطل اعتقادًا ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبة موضع.

إذا كان القلب ممتلئًا بالباطل بما لا يعنيني اعتقادًا ومحبة، فلا مكان له ليمتلئ بالحق ومحبة.

يقول: كما أن اللسان إذا اشتغل بالتكلم بما لا ينفع لم يتمكن صاحبه من النطق بما ينفعه إلا إذا فرغ لسانه من النطق بالباطل. وكذلك الجوارح إذا اشتغلت بغير الطاعة لم يمكن شغلها بالطاعة إلا إذا فرغها من ضدها.

المقصود أنك تملك قلباً واحداً وجوارح واحدة ولساناً واحداً، إذا اشتغلت هذه بما لا يعينك لن تشتغل بما يعينك.

أحياناً الشخص يقول أنا الآن في هذا الزمن سأشتغل بما لا يعينني لكن بعد قليل سيأتي زمن أنشغل بما يعينني، نقول الانشغال بما لا يعني مثل العادات التي إذا اكتسبت يصعب تغييرها، صعب أن تأتي في مواقف وتحول نفسك، ستجد نفسك في كل مكان لا يلفت نظرك إلا الذي لا يعينك، وهذا ابتلاء جزاءً لك، أنت لا تتعامل مع نفسك مثل الآلة وقت ما تريد أن تتكلم تتكلم ووقت ما تريد أن تترك تترك! لا، أنت شخص تتطبع بطباع إذا عشت منشغلاً فيما لا يعينك زمناً أصبح من عاداتك أن تبقى منشغلاً بما لا يعينك.

يقول: فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه والأنس به، لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من تعلقه بغيره.

محبة غير الله نوع من الابتلاء في المحبة، ليس شرطاً أن أتعلق بشخص، ممكن أتعلق بصفة لا يقبلها الله محبة لها.

فكذلك القلب المشغول بمحبة غير الله وإرادته والشوق إليه والأنس به: يعني يفرح بأنه يأتيه هذا الشيء الذي لا يعنيه، مثل القوم الذين أهم ما عندهم فرش بيوتهم أو أناقيتهم، لما يملكون مثل هذا يدخل في قلبهم الفرح المذموم.

إذن هذا القلب المشغول بهذه الطريقة لا يمكن شغله بمحبة الله وإرادته، وحبه والشوق إلى لقائه إلا بتفريغه من التعلق بهذه الأشياء، بترك الانشغال بما لا يعين.

على ماذا يقع ترك ما لا يعين؟

عقلي ولساني وجوارحي، على هذا يقع ترك ما لا يعينني.

يقع ترك ما لا يعين على عقل العبد:

العبد عنده خواطر، عنده تصورات، عنده تخطيطات، خواطر العبد فيها ما يعنيه وفيها ما لا يعنيه، يمر على خاطر العبد تصورات فيها ما يعنيه وفيها ما لا يعنيه، هذا كله في عقله، يخطط لأمر ما له علاقة بها، ينشغل بأمر ما له علاقة بها.

لاحظي الخواطر التي تمر عليك، الأسئلة التي تمر على خاطرك وتهتمين بها هل تعنيك أو لا تعنيك؟!

التصورات، يمرّ عليك أحد وتأخذ عنه تصوّرًا، هذه التصورات التي تنطبع بها فيها ما لا يعنيك، لا تلتقط تصوّرًا عن أحد إلا إذا كان يعنيك.

أحيانًا التخطيطات طويلة المدى تخطط لأشياء ليس لك علاقة بها، أضرب أمثلة على التخطيط:

يكون في الطريق بين جدة ومكة، ويرى أرض فاضية على اليمين وعلى اليسار، يفكر لو بنوها، لو فعلوا، لو عملوا...!، بدلاً من أن يتفكر في الله أو يذكر الله.

هذه الأشياء التي لا تنتبه لها هي التي تُكوّن اعتقاداتنا ونحن لا نشعر، وفي النهاية يكون طول حياته فقط يفكر فيما لا يعنيه، وكل هذه بلاءات عليه! ثم يقول أنا أعمل كل شيء من أجل أن أجمع قلبي في صلاتي ولا أجد ذلك! نفترض أنك طالع من جدة إلى مكة لتصلي في الحرم، من أجل أن تجمع قلبك في الصلاة ماذا فعل؟ طوال الطريق تذكر الله، وتساءله أن يفتح عليك أن ييسر لك، ويبارك لك في مكانك، افعل كل هذا من أجل أنك لما تصل الحرم تكون مباركا. كيف تُصلي وكيف تدعو وأنت طوال الطريق مشغول بما لا يعنيك ومشغول، ثم فجأة تريد تدخل الحرم وتتغير؟!

تجمع قلبك طول الطريق تجد قلبك في الأخير، تجمع قلبك طول الحياة تجد قلبك عند لحظة الوفاة الخطيرة! حسن الخاتمة ما يأتي إلا ممن كان طول حياته من أن تاب وأقبل على ربه وهو منشغل بهذه اللحظة التي ستأتي ولا بد ولا يعرف موعدها ولا يعرف كيف يكون حاله، يبقى منشغلاً بحسن الخاتمة، الانشغال بحسن الخاتمة يؤدي في النهاية أنك توفق لها.

يقع ترك ما لا يعني على لسان العبد:

نكتفي بهذا الحديث فيه، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: تُؤَيِّي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ -يَعْنِي رَجُلًا-: أَبَشِّرُ بِالْجَنَّةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَوْ لَا تَدْرِي فَلَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَعْنِيهِ أَوْ بَخَلَ بِمَا لَا يَنْقُصُهُ)) .^١

يعني لو تدخل فيما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه لم يكن مستحقاً للبشارة.

وفي الحديث أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((مَنْ يَضْمِنَ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَابَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمِنُ لَهُ الْجَنَّةَ)).^١

^١ سنن الترمذي قال حديث غريب/كتاب الزهد/ باب فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس (٢٣١٦) وقال الألباني صحيح لغيره.

وفي حديث عن مُعَاذِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الذي في آخره: فقال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((كُفَّ عَلَيْنَا هَذَا)) فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: ((تَكَلَّمْتَ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟)).

وفي حديث آخر: ((مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ سَتَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَوْرَتَهُ)).

ما هو الكلام الذي لا يعينك؟

نقل صاحب تحفة الأحوذى عن بعض أهل العلم قوله: وَحَدُّ مَا يَعْنِيكَ - في الكلام - أَنْ تَتَكَلَّمَ بِكُلِّ مَا لَوْ سَكَتَ عَنْهُ لَمْ تَأْتُمْ وَلَمْ تَتَضَرَّرْ فِي حَالٍ وَلَا مَالٍ.

كل شيء لو سكت عنه لن يحصل ضرر ولا إثم بسببه، إذن هو مما لا يعينك، اترك الكلام عنه.

مِثَالُهُ: أَنْ يَجْلِسَ مَعَ قَوْمٍ فَتَحْكِي مَعَهُمْ أَسْفَارَكَ وَمَا رَأَيْتَ فِيهَا مِنْ جِبَالٍ وَأَنْهَارٍ، وَمَا وَقَعَ لَكَ مِنَ الْوَقَائِعِ، وَمَا اسْتَحْسَنَتْهُ مِنَ الْأَطْعِمَةِ وَالثِّيَابِ، وَمَا تَعَجَّبْتَ مِنْهُ مِنْ مَشَايخِ الْبِلَادِ وَوَقَائِعِهِمْ، فَهَذِهِ أُمُورٌ لَوْ سَكَتَ عَنْهَا لَمْ تَأْتُمْ وَلَمْ تَتَضَرَّرْ.

إلى هنا هذا كله مما لا يعينك، إذا ما دخلت الكذب وما دخلت أيضاً تزكية.

وَإِذَا بَالَعْتَ فِي الْاجْتِهَادِ حَتَّى لَمْ يَمْتَزِجْ بِحِكَايَتِكَ زِيَادَةٌ وَلَا نُقْصَانٌ، وَلَا تَزْكِيَةٌ نَفْسٍ مِنْ حَيْثُ التَّفَاخُرِ بِمُشَاهَدَةِ الْأَحْوَالِ الْعَظِيمَةِ، وَلَا اغْتِيَابٌ لِشَخْصٍ، وَلَا مَذَمَّةٌ لِشَيْءٍ مِمَّا خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى

إذا تكلمت ووصفت وصفاً صادقاً وما فيه تزكية لنفسك وما في اختيار لشخص وما في مذممةً لشيءٍ خلقه الله كل هذا لو

فعلته:

فَأَنْتَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مُضَيِّعٌ زَمَانِكَ، وَمُحَاسِبٌ عَلَى عَمَلِ لِسَانِكَ! إِذْ تَسْتَبْدِلُ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؛ لِأَنَّكَ لَوْ صَرَفْتَ زَمَانَ الْكَلَامِ فِي الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ رَبَّمَا يَنْفَعُ لَكَ مِنْ نَفَحَاتِ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى مَا يَعْظُمُ جَدْوَاهُ، وَلَوْ سَبَّحْتَ اللهُ بُيِّ لَكَ بِهِمَا قَصْرٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ كَنْزًا مِنَ الْكُنُوزِ فَأَخَذَ بَدَلَهُ بَدْرَةً لَا يَنْتَفِعُ بِهَا كَانَ حَاسِرًا حُسْرَانًا مُبِينًا، وَهَذَا عَلَى فَرَضِ السَّلَامَةِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي كَلَامِ الْمَعْصِيَةِ، وَأَنْ تَسَلَّمَ مِنَ الْأَقَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا، وَحَالِ الصَّالِحِينَ خِلَافَ ذَلِكَ.

^١ صحيح البخاري (٦٤٧٤).

^٢ سنن الترمذي/ كتاب الإيمان/ باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦).

رَوَى مَنْصُورٌ بنُ إِبرَاهِيمَ قَالَ: قَالَ فَلَانٌ: مَا أَرَى الرَّبِيعَ بنَ حُثَيْمٍ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً إِلَّا بِكَلِمَةٍ تَصْعَدُ .
تصعد لله، بمعنى أنها ترفعه عند الله.

- وعن بعضهم قال: صحبت الربيع عشرين عامًا ما سمعت منه كلمة عتاب.

- وَقِيلَ لِلْقُمَانِ الْحَكِيمِ: مَا حِكْمَتُكَ؟ قَالَ: "لَا أَسْأَلُ عَمَّا كُفَيْتُ، وَلَا أَتَكَلَّمُ مَا لَا يَعْنِينِي".

- وقد روي أنه دخل -لقمان- على داود النبي صلى الله عليه وسلم، وكان داود يسرُّ الدرع، فجعل يتعجب مما رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فمَنَعَتْهُ حِكْمَتُهُ، فَأَمْسَكَ. فَلَمَّا فَرَغَ قَامَ دَاوُدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَلَبِسَ الدَّرْعَ ثُمَّ قَالَ: نِعَمَ الدَّرْعُ لِلْحَرْبِ، -يعني جاء له الجواب على السؤال- فَقَالَ الْقُمَانُ: الصَّمْتُ حِكْمَةٌ وَقَلِيلٌ فَاعِلُهُ.

يعني يصبر لا يستعجل.

يقع ترك ما لا يعني على جوارح العبد:

- عينك: يقول الله عز وجل: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ} .
٢

الآية صريحة (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ) وردت في موطنين في كتاب الله عز وجل في طه والحجر، ما المقصود منها؟ المقصود أن كل شخص مَتَّعَهُ اللهُ بِمَتَّعَةٍ فَتَنَةٌ لَهُ أَنْتَ لَا تَمُدُّ عَيْنَكَ إِلَيْهِ تَقْلِبُ نَظْرَكَ فِيهَا مُتَّعُوا بِهِ، لَا فِي لِبْسٍ لَا فِي فَرْشٍ، كُلُّ هَذَا مَرْفُوضٌ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَبْقَى قَلْبُكَ مَنشَغَلًا بِمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَنشَغَلًا بِهِ.

- أذنك: أحيانًا بصورة أو بأخرى أسمع شيئًا لا يعنيني، ماذا أفعل؟ لا أسترسل في السماع، مثلًا امرأة تتكلم معي بالجوال، ودخل زوجها يكلمها، والحديث الذي يدور بينهم مسموع لك فماذا تفعلين؟ اتركه بصورة أو بأخرى، لا تكوني حريصة أن تسمعي ما يدور، وهكذا.

- يدك وقدمك: لا تسير إلا إلى مكان يزيدك طاعة، يزيدك إيمانًا، يزيدك برًا وقرابًا من الله عز وجل، وكل شخص بالنسبة له هذه المسألة مراتب. وهكذا بالنسبة لليد، لا تقلب بيدك ما لا ينفعك.

^١ تحفة الأحوذى.

^٢ طه: ١٣١

على كل حال إذا تبين ترك ما با يعني في اللسان وفي القلب فهذا تابع له.

نتناقش في الضدّ: الاشتغال بما يعني.

قال ابن مسعود: "إذا أراد الله بعبده خيرًا سدّده، وجعل سؤاله عما يعنيه، وعلمه فيما ينفعه".

يعني ما يعلمه الله إلا ما ينفعه.

قال زيد بن علي لابنه: "يا بُني، اطلب ما يعينك في ترك ما لا يعينك، فإن في ترك ما لا يعينك تركًا لما يعينك. -يعني تدرك به ما يعينك- واعلم أنك تُقدّم على ما قدّمت، ولست تُقدّم على ما أخّرت، فأثر ما تلقاه غدًا على ما لا تراه أبدًا".
يعني أي تصرف الآن تعمله لا ترجع إلى الوراء، بل تترك وراء وتتقدم إلى الأمام لتلقى الله، فأثر ما تلقاه غدًا على ما لا تراه أبدًا يعني الشيء الماضي.

السؤال : كيف نصل؟

أولاً: بتحديد نقاط الضعف.

قال السري السقطي البغدادي: ما رأيت شيئًا أحبط للأعمال، ولا أفسد للقلوب، ولا أسرع في هلاك العبد، ولا أدوم للأحزان، ولا أقرب للمقت، ولا ألزم لمحبة الرياء والعجب والرئاسة، من قلّة معرفة العبد لنفسه، ونظره في عيوب الناس.

إذا أول شيء لا بد أن أعرف نفسي من أجل أن أتخلص من الانشغال بما لا يعينني، لا بد أن أكتشف نفسي، أفهم أنا من، ما النقاط التي أدخل فيها فيما لا يعينني وتؤثر علي، كل شخص عنده نقطة ضعف، أناقتي الشخصية، أناقة الأكل، أناقة البيت، هذا نوع انشغال أو الاهتمام بمسائل لا علاقة لي بها، تفكيرًا أو كلامًا أو سؤال الناس عنها، لا بد أن تعرف أنت بالذات ما الذي يشغلك؟ أنت بالذات ما نقطة ضعفك؟ لأننا لسنا سواء في نقطة الضعف.

ثانيًا: التدريب + الصبر.

ولله در مورك العجلي حين قال: أمرُ أنا أطلبه منذ عشرين سنة لم أنه، ولست بتاركة فيما أستقبل، فلما قيل له: ما هو؟ قال: الصمت عن ما لا يعنيني.

بقي يدرب نفسه على الصمت عن ما لا يعنيه عشرين سنة، يبذل هذا الجهد ما يئس؛ لأن انتظار الفرج عبادة، تنتظر أن يفرج الله عليك أن لا تتكلم فيما لا يعينك.

المسألة تحتاج إلى تدريب وصبر، كلما أريد أن أتكلم فيما لا يعنيني أتراجع، وأحياناً أنسى وأرجع.

ثالثاً: عدم الاستسهال.

يونس بن عبيد سئل عن حاله فقال: إن نفسي قد ذلت لي بصيام اليوم البعيد الطرفين الشديد الحر، ولم تذلي لي بترك الكلام فيما لا يعنيني.

يعني سهل عليها الصيام في يوم طويل شديد الحر لكن ترك الكلام فيما لا يعني ليس سهلاً عليها. نحن لا نشعر أنها جريمة أصلاً، بمعنى أنا لا أكذب ولا أغتاب، أذكركم بالحديث لما الصحابي قال: أَبَشْرُ بِالْجَنَّةِ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَوْ لَا تَدْرِي، فَلَعَلَّهُ تَكَلَّمَ فِيمَا لَا يَغْنِيهِ، أَوْ بَخَلَ يَمَا لَا يَنْقِصُهُ)).

يعني أنه ليس بدرجة الكمال التي يُبشر بالجنة، لو فهمنا الأمر حقيقة ما نطلب من الله إلا أن يعاملنا باسم الغفور الشكور.

رابعاً: ترك الحساسية المهرفة.

- قال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم: إن الولاة جعلوا العيون على العوام وأنا أجعلك عيني على نفسي، فإن سمعت مني كلمةً تريباً بي عنها أو فعلاً لا تحبه فعظني عنده وانهي عنه.

- قال ميمون بن مهران: قولوا لي ما أكره في وجهي؛ لأنَّ الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره.

- قال بعض السلف: من حقِّ العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العلماء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء، فالرأي الفذُّ ربّما ذلٌّ، والعقل الفرد ربّما ضلٌّ.

فلما نأتي نتكلم فيما لا يعيننا نحتاج أن يقال لنا: انتبهوا هذا لا يعينكم، أنا أحتاج أيضًا لما أحد يتكلم معي فيما لا يعنيه ولا يعينني أن أقول له ذلك. على كل حال لما يأتي هذا الموقف الذي تنبهي فيه، قبل أن تتكلمي توسلي إلى الله أن ينزل كلامك بردًا وسلامًا، واحتسبي أنك لا مراد لك إلا أن تُنجي نفسك، وتنجي الناس الذين حولك.

ومسألة الانشغال بما لا يعينك تبدأ بتربية أنفسنا أولاً قبل الكلام عن أي أحد حولنا.

هل السن مؤثر في تغيير هذا الطبع؟ هل إذا بلغ الإنسان مبلغًا من السن يقول لا يمكن أن أتغير؟

قال الإمام الشافعي: طلب الراحة في الدنيا لا يصلح لأهل المروءات، فإن أحدهم لم يزل تعبانًا في كل زمان.

يعني ليس هناك زمن تصل فيه إلى أن تقول: هذا طبعي لن أتغير، أنت تبقى طوال حياتك تعبانًا إلى أن تلقى الله، فأياً كان عمرك في النهاية هذا الطبع ممكن أن يتغير، هذه الحال يمكن أن تختلف.

على كل حال هذا الحديث يحتاج منا كثرة ترداد، وكثرة تأمل.

أسأل الله عز وجل أن يشرح صدوركم وييسر أموركم ويبارك لكم.